زيلينيا الصغيرة

ترجمة : محمد عبد الواحد الكميـم

قصة للكاتب الروسي: أنطوان تشيخوف

ما إن عادت نادية زيلينيا مع والدتها من المسرح، حيث شاهدتا "يفجيني أنيجين" * ودخلت غرفتها، حتى نزعت فستانها بسرعة وحلت ضفيرتها، وأسرعت بالجونلة والبلوزة البيضاء فقط فجلست إلى الطاولة لتكتب خطابا كالذي كتبته تاتيانا.

وخطت: "إنني أحبك، ولكنك لا تحبني، لا تحبني". كتبت هذا وضحكت.

كان عمرها ستة عشر عاما فقط، ولم تحب أحدا بعد. وكانت تعلم أن الضابط جورني والطالب جزوديف يحبانها، ولكنها شعرت الآن بعد الأوبرا برغبة في التشكك في ذلك الحب. أن تكون غير محبوبة وتعيسة .. ما أروع ذلك! ثمة شيء ما، حين يحب الشخص بقوة ولا يكترث به الآخر، شيء جميل، ومؤثر وشاعري.

أنيجين ممتع لأنه لا يحب مطلقا أما تاتيانا فهي خلابة لأنها تحب بقوة، ولو أنهما أحبا بعضهما البعض بنفس الدرجة وكانا سعيدين لأصبحا علي الأرجح مملين. "كف عن التأكيد بأنك تحبني- واصلت نادية الكتابة وهي تفكر في الضابط جورني- فأنا لا استطيع أن أصدقك، أنت ذكي جدا مثقف جاد ولديك موهبة كبيرة وربما كان في انتظارك مستقبل باهر، أما أنا فلا شيء يميزني فتاة لا وزن لها وأنت نفسك تعرف جيدا أنني لن أكون سوي عقبة في حياتك حقا. أنت همت بي وظننت أنك في شخصي عثرت على المثال الذي تبحث عنه، لكنها كانت غلطة والآن تسأل نفسك بيأس: ما الذي جعلني ألتقي بهذه الفتاة؟ وطيبة قلبك فقط هي التي تمنعك من الاعتراف بذلك!..".

أحست نادية بالإشفاق على نفسها، فبكت ومضت تكتب: "صعب علي فراق ماما وأخي، وإلا كنت ارتديت مسوح الراهبات ومضيت أينما يمتد بي النصر .. ولأصبحت أنت حرا وأحببت فتاة غيري. آه لو كنت أموت".

من خلال الدموع استحال تبين الكلمات المكتوبة، وتراقصت ألوان طيف قصيرة فوق الطاولة، وعلى أرضية الغرفة وعلى السقف كما لو أن نادية كانت تنظر عبر منشور، وتعذرت الكتابة فتراجعت إلى ظهر المقعد وأخذت تفكر في جورني. يا إلهي، أي سحر في الرجال، وأية جاذبية! تذكرت نادية ذلك التعبير الرائع، المتزلف والمذنب والناعم الذي يرتسم على وجه الضابط عندما يجادلونه في الموسيقى، وأية جهود يبذلها أثناء ذلك لكيلا يرن صوته بحماسة. ففي المجتمع الذي يعتبر فيه الترفع البارد واللامبالاة دلالة على حسن التربية والأخلاق الفاضلة لابد أن تداري حماستك وهو يداريها. لكنه لا يوفق في ذلك، فالجميع يعرفون جيدا أنه يهوى الموسيقي بشغف. إن المناقشات التي لا تنتهي عن الموسيقى والأحكام الجريئة لغير الفاهمين من الناس. تجعلانه في توتر دائم فهو مفزع خجول وصموت وهو يعزف على البيانو بصورة رائعة مثل أي عازف أصيل ولو لم يكن ضابطا لكان في الغالب موسيقيا مشهورا.

وجفت دموعها، وتذكرت نادية أن جورني قد صارحها بحبه في حفل سيمفوني، ثم بعد ذلك في الطابق الأرضي بجوار المشاجب حيث هبت تيارات الهواء من جميع النواحي.

"أنا سعيدة جدا لأنك أخيرا تعرفت على الطالب جروزديف – مضت تكتب- إنه إنسان ذكي جدا ولعلك ستعجب به. كان عندنا بالأمس ومكث حتى الساعة الثانية وقد انبهرنا به جميعا وتأسفت أنك لم تأت لقد حدثنا بالكثير من الأشياء الرائعة".

عقدت نادية يديها فوق الطاولة وأسندت إليهما رأسها فسقط شعرها وغطى الخطاب.

وتذكرت أن الطالب جروزديف أيضا يحبها وأن له الحق في رسالة منها مثلما لجورني تماما.

وبالفعل أليس من الأفضل أن تكتب إلي جروزديف؟ وبلا أية أسباب دبت البهجة في صدرها .. بدأت بهجة صغيرة تواثبت في صدرها مثل كرة من المطاط، ثم صارت أعرض وأكبر وتدفقت كالموجة.

ونسيت نادية جورني وجروزديف واختلطت أفكارها، بينما أخذت البهجة تكبر وتكبر وتنساب من صدرها إلى ذراعيها وساقيها وخيل إليها كأن نسمة رقيقة باردة هفت على رأسها فحركت شعرها. واهتزت كتفاها من الضحك الخافت. واهتزت الطاولة وزجاجة المصباح وطفر الدمع من عينها إلى الخطاب، لم يكن بوسعها ان توقف ذلك الضحك ولكي تظهر لنفسها أنها لا تضحك بدون سبب أسرعت تتذكر شيئا ما مضحكا.

- يا له من مضحك ذلك الكلب البودل!

تمتمت وقد شعرت أنها ستختنق من الضحك.

– يا له من مضحك ذلك البودل.

تذكرت كيف لاعب جروزديف، بعد شرب الشاي بالأمس، الكلب البودل مكسيم، ثم حكي لها عن بودل ذكي جدا لاحق في الفناء غرابا، فالتفت الغراب نحوه وقال:

- أنت يا أفاق!

ولم يكن الكلب يدري أن أمامه غرابا مدربا فارتبك بشدة وتراجع في حيرة ثم عاد ينبح.

- كلا، الأفضل أن أحب جروزديف

قررت نادية ومزقت الرسالة، وراحت تفكر في الطالب، في حبه وفي حبها، لكن الذي حدث أن الأفكار ساحت في رأسها فأصبحت تفكر في كل شيء: في أمها في الشارع في القلم في البيانو.

فكرت ببهجة فوجدت أن كل شيء حسن، رائع. وأوحت إليها البهجة بأن هذا ليس كل شيء بعد. وأنه عما قريب ستكون الأمور أروع. قريبا يحل الربيع، الصيف، السفر مع والدتها إلى "جوربيكي"، سيأتي جورني في فترة إجازته وسيتحول معها في الحديقة ويحيطها باهتمامه.

وسيجئ جروزديف أيضا ويلعب معها الكروكيت والكجل ويقص عليها أشياء مضحكة أومدهشة وانتابتها رغبة جارفة في أن تجد نفسها في الحديقة في العتمة تحت السماء الصافية والنجوم. واهتزت كتفاها ثانية من الضحك، وخيل إليها أن الغرفة تعبق برائحة الشيح، وأن غصنا قد احتك بالنافذة.

مشت نحو فراشها وجلست، ودون أن تدري ماذا تفعل ببهجتها التي أضنتها، نظرت إلى الأيقونة المعلقة فوق ظهر سريرها وتمتمت:

- يا إلهي! إلهي! يا إلهي!.

نصوص قصيرة

■ محمد حسن القزحي

(انتظار)
هي إبعد من متعتي
كي أُطاردها في الحياة
لتسقط عاليةً
فوق سجادةِ الانتظار
كفاكهةٍ ناضجة
أو كعصفورةٍ أودعت نفسها
في الشباك ..

(اندفاع)
لصالح من تندفعين
صوب الهلع المتشبث بالموت
وإلى متى ستعيشين أغلب الوقت
تخططين لاحتلال أوطان المستقبل،
تُحاربين بأسلحةٍ وقناديل
وحين يفرقع الكونُ
تحملين النهار في ألف شظيّة
ثم تهربين خارج حدود اللحظة؟؟..

(عزلة)
أحياناً تجتاز أميالٍ من العزلة
ينفذ العشب ويجفُّ مستنقعُ القلب،
فهل ينتهي حلمك إذا امتنعت عن المضي؟
وأين تتوقف اذا مضيت ؟ ..

(عبور)
أن أغادرَ نفسي
أُعلّق جسدي على سقف العزلة
وأذهب معكِ الى آخر الجنون
أن أتوب من معاصيكِ
وأكفّ يدي عن استمراء الأباطيل
أن أتعرّف كيف أموت
أدخل تابوتك
و أعبر مخاضاتك المحتملة..

(طوفان)
ذهبوا جميعاً باتجاه نشوتهم
وتركوني وحيداً
أفترش الكوابيس الملونة
وأجلس قرب اليأس
كفكرةٍ خلّفها الطوفان.

(أسهم)
تلك الأسهم التي تخترق
ظلمة النخاع
تتساءل
عن هواجسهِ وحواراته الضائعة
عن التداخل الحميم بين صبره
وابتكاراتها.

أسرار قذرة

■ خالد الحيمي

استيقظ ولم يجد شاربه، انتابه الفزع، وأخذ يبحث عنه في أرجاء المنزل، نبش كل شيء، ولكن لا فائدة:

- أين ذهب هذا الشارب اللعين؟ لقد كان رفيقي دائماً، لم أتخلَّ عنه، ولم يتخلَّ عني، فلماذا يتركني في هذا الوقت الحرج؟

ثمة صوت يأتي من قبل المكتبة، لا بد أن يكون هو.. هرع إلى باب المكتبة، فتحه واندفع إلى الداخل.. هناك خلف نظارة سميكة وكرسي خشبي، جلس الشارب الضائع يكتب الصفحات الأخيرة من مذكراته، وهو يبكي. عاتبه على تركه إياه، وبرفق حمله، وأعاده إلى مكانه:

لماذا تبكي يا صديقي .. تعرف أني لن أتخلى عنك أبداً؟

أصلح هندامه، وتأمل شاربه بأنَفَة، ثم أخذ حقيبته وخرج. فتح باب سيارته.. رمى الحقيبة إلى المقعد المجاور، وجلس خلف المقود. سقط شاربه، وتعلّق بزجاج النافذة من الخارج. حاول استعادته؛ قفز الشارب إلى الشارع هارباً. قفز- هو بدوره- وأمسك به متعجباً من تصرفاته الغريبة. ظل ممسكاً به حتى استقر داخل السيارة، وأغلق نوافذها بإحكام، أدار المحرك وانطلق؛ قفز الشارب إلى المقعد الخلفي، وأخذ يتنطط باحثاً عن وسيلة للخروج، لم يكن من سبيل للفرار:

لا أدري ما الذي يحدث لك اليوم..؟ أرجوك عد إلى مكانك ولا تحرجني أكثر من هذا.

وصل إلى مقر عمله متأخراً، أوقف سيارته، وتأكد من هندامه. تحرّك خطوة واحدة، مدّ يده إلى شاربه فلم يجده، عاد إلى السيارة. كان شاربه يجلس في المقعد الأمامي ينتحب. طبطب عليه وأخذه بسخط، ووضعه في مكانه.

أغلق باب السيارة وسار خطوة واحدة، سقط الشارب أرضاً، قرفص بجواره محاولاً التقاطه؛ هرب الشارب باتجاه السيارة، واختبأ خلف أحد الإطارات. ذهب للبحث عنه، وجده بعد جهد، ثبته بقوة في مكانه، ونظر في مرآة السيارة، ابتسم دون أن يخفي تبرمه، وعبر البوابة الرئيسة محيياً الحراس. امتعظ كثيراً حين لم يولوه اهتمامهم، وأقسم في نفسه أن يغيرهم عند أقرب فرصة.

عبر درجات السلم دون أن يرفع يده عن شاربه، وصل إلى مكتبه، جلس هادئاً، وطلب حضور الموظفين جميعاً، وفنجان شاي. لم يستجب أحد لطلبه؛ غضب بشدة، وخرج ينادي بأسمائهم واحداً واحداً. لم يرد أحد.

سمع جلبة وصراخاً يأتيان من الخارج، اقترب من النافذة، فتحها وأطل برأسه.. تراجع مذعوراً وهو يكرر عبارة: "ما لهذا ربيتك يا شاربي"

كان الشارب المتمرد يقف على منصة افتراضية، يبوح بأسرار صاحبه أمام الملأ .. وكانت أسرار قذرة جدّاً .. جدّاً !!

سرد لبؤس الإنسان

أصدر مشروع "كلمة" للترجمة في هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة كتاباً جديداً بعنوان: "أسوأ المهن في التاريخ: سرد لقصة ألفي عام من العمالة البائسة" للمؤلف توني روبنسون ونقله إلى العربية د. عبدالله جرادات.

يتناول الكتاب بأسلوب سردي ممتع ولا يخلو من الطرافة أسوأ المهن التي عاصرتها الجزيرة البريطانية على مدى ألفي عام ابتداء بالعصر الروماني القديم، مروراً بالعصور الوسطى وانتهاء بالفترة الفيكتورية. وحاول المؤلف- حسب قوله- أن يخص كل فترة بما امتازت به من مهنٍ، قد يكون بعضها حديثاً، أو استمر منذ فترة سابقة، غير أن الكاتب يجزم أن اختياراته شخصية محضة، وذلك لعدم وجود مقاييس موضوعية لقياس بؤس الإنسان.

ولقد استعرض الكاتب في فصله المعنون: "أسوأ الوظائف الأولى" أسوأ المهن خلال فترة الحكم الروماني للجزيرة البريطانية، وهي المهن التي عُدت العبودية إلى جانبها رفاهاً مستديماً، ومن المهن التي ذكرها الكاتب مهنة عامل مناجم الذهب الذي كان يقضي شهوراً في مناجم لا يرى فيها نور الشمس، وقد يقضي دون أن يراها. واستحق فلاحو العصور المظلمة وحراثوها حق تصنيفهم إلى جانب الرهبان المبتدئين والناسخين المزخرفين وصائدي الحديد في المستنقعات والفحامين وساكّي العملة المعدنية الذين لا ينالهم نصيب منها سوى ضمهم ضمن أسوأ المهن في العصور المظلمة.

وتعرض الكاتب ضمن هذا الفصل أيضا إلى أسوأ مهن الفايكنغ؛ الغزاة القساة، التي كان منها مهنة حمّالي البضائع، الذين كانوا يحملون سفنهم، إن اضطروا إلى ذلك. وانتهى المؤلف بذكر أسوأ مهنة على الإطلاق خلال العصور المظلمة، وهي- حسب رأيه- جامع بيض الغلموت الذي كان يتسلق وهو مربوط بحبل فوق الجروف الشاهقة الخطرة لجمع بيوض طائر الغلموت، ولك أن تتخيل ماسيحدث إن انقطع الحبل.

وكرس الكاتب الفصل الثاني للحديث عن أسوأ المهن في القرون الوسطى وهي "الفترة التي تبوأت فيها أسوأ المهن مكانه مستقلة، فأصبح للمهن نقابات تنظم عملها". وكانت مهنة حافد الفارس أو حامل دروع الفارس هي المهنة التي استهل بها الكاتب حديثه، ثم انتقل إلى الحديث عن الحلاق الجراح الذي عُد طبيب عصره، وهو لا يستغني عن مهنة سيئة أخرى هي مهنة جامع العلق الذي كان له استخدامات طبية لما يحويه من مواد مضادة للتجلط. وتعرض الكاتب لمهنة سيئة أخرى متعلقة بالطب، ألا وهي الطبيبة الشعبية التي كانت تعتمد على الخرافات والمعتقدات التي لا أساس لمعظمها من الصحة. ومن المهن السيئة الأخرى تلك المرتبطة ببناء الكاتدرائيات الضخمة كمهنة البناء السيد، وحارق الجير، ومشغل العجلة/ الرافعة. ولقد ختم المؤلف الفصل بالحديث عن أسوأ مهنة خلال تلك الفترة، وهي مهنة القصار وهو من يقوم بنزع الأوساخ عن صوف الأغنام.

وتحدث الفصل الثالث عن أسوأ المهن خلال الفترة التيودورية، التي كانت تعد بالنسبة إلى الكثيرين نهضة حقة، لكن الكاتب اعتبرها خادعة، لأن ظروف الناس لم تتغير عما كانت عليه خلال القرون الوسطى.

وكرس الكاتب الفصل الرابع للحديث عن العهد الستيورتي الذي شهد الكثير من الانقلابات الدينية والسياسية وكانت مهنة موظف ملح البارود الذي كان يستخلص ملح البارود من مختلف أنواع الفضلات أولى المهن وثانيها مهنة مساعد المفجر، الذي كان مسؤولاً عن نصب المتفجرة على أسوار الأعداء والهرب قبل أن تنال منه. ومن المهن الأخرى حامل الكرسي المغلق وحمال الماء وآكل العلاجم/ الضفادع وملتقط بيض القمل. كما تعرض الكاتب لأسوأ المهن خلال فترة الطاعون، التي تضمنت الباحث عن الموتى ودافن الموتى وقاتل الكلاب والقطط وأخيراً، ذكر الكاتب أن مهنة صانع أوتار الكمان كانت أسوأ مهنة في ذلك العصر لأن العاملين فيها كانوا يتعاملون من أمعاء الخراف بما تحويه من فضلات.

وأشار الكاتب في الفصل الخامس المكرس للحديث عن العصر الجيوروجي إلى أن "خلف كل ظاهرة جيوروجية مبهرة باطناً خفياً مظلماً" تمثل في المهن السيئة. وأولى مهن هذا العصر مهنة الضابط الراكب الذي كان مسؤولاً عن حماية أميال من الشواطىء وحده من خطر المهربين والعصابات، وثاني المهن كان مهنة مرشد حمام "باث" الذي كان يقضي معظم يومه مخضلاً بالماء. أما المهن السيئة الأخرى فهي عارض الفنان، الذي كان مطلوباً منه أن يقف دون حراك لساعات؛ ونابش القبور، الذي كان ينبش القبر لاستخراج جثة مدفونة حديثاً ليقوم ببيعها الى طبيب أو معهد طبي؛ والزاهد، الذي كان الغني المترف يرى عبره بؤس الدنيا؛ وختم الكاتب الفصل بذكر أسوأ مهنة على الإطلاق خلال تلك الفترة ألا وهي مهنة نقاب آلة الغزل، الذي كان يقضي وقته أسفل دكة النساجة لجمع ما تساقط من خيوط على الأرض معرضاً نفسه لخطر فقدان أحد أطرافه.

وتحدث الفصل السادس عن الجوانب المظلمة في العصر الفيكتوري التي قام كتّاب كتشارلز ديكنز والسير آرثر كونن دويل بتصويرها في كتاباتهم، ومهن ذلك العصر هي حفار السكك الحديدية وملتقط الحجارة ومنظف المداخن وصائد الجرذان وصانع الكبريت، ومن ثم تطرق الكاتب الى أسوأ المهن في الإصلاحية وهي كاسر الحجارة، وجامع نكيث الحبال، والباحث عن أعقاب السجائر، وبائع الشاي المتجول، ورجل النفايات، ورجل الخرقة ونابش العظام، ومنقب الصرف الصحي، وجامع روث الكلاب.

وهكذا تناول الكتاب بتفصيل دقيق ولغة جذابة أسوأ المهن التي شهدتها بريطانيا خلال فترتين من الزمان، وقد حاول توني روبنسون من خلاله كشف النقاب عن بؤس الكثرة الكاثرة من السكان الذين نسيهم التاريخ أو نسيهم كتابه- حين سلطوا أضواءهم على أخبار الملوك والملكات والفرسان- عبر تسليط الضوء على بعض المهن امتهنوها عن رضا أو إكراه.

ورغم اعتراف روبنسون بأن اختياراته كانت شخصية بحتة، فإنه سعى جاهداً إلى أن يكون موضوعياً في تخصيص كل فترة زمنية- ابتداء بالرومان وانتهاء بالفترة الفيكتورية- بمهنها الأسوأ الخاصة بها، وبذا كان الكتاب سجلاً تاريخياً للحياة الاجتماعية والاقتصادية، والسياسية، نستطيع من خلاله تلمس التواريخ المحددة لظهور مهنة ما كالقصارة، التي ظهرت في العصور الوسطى، أو اختراع آلة ما كالنسّاجة التي ظهرت في العصر الفيكتوري، أو وقوع حدث جلل كالطاعون، الذي حلّ في إنجلترا خلال الفترة الستيورتية.

والمؤلف توني روبنسون (-1947) ممثل كوميدي، ومؤلف، ومذيع وداعية سياسي، اشتهر بدور بالدريك في مسلسل هيئة الإذاعة البريطانية الكوميدي بلاكأدر ((Blackadder. ولروبنسون اهتمام بالغ بالتاريخ، وعلم الآثار، وقاده هذا إلى تقديم البرامج التالية للقناة الرابعة في الهيئة: تايم تيم (Time Team) وأسوأ الأعمال في التاريخ (The Worst Jobs in History).

وقام بترجمة الكتاب إلى العربية الدكتور عبدالله جرادات، أستاذ اللغويات المساعد في قسم اللغة الإنجليزية في الجامعة الهاشمية، الأردن. وهو حاصل على درجة الدكتوراه- مع مرتبة الشرف- في اللغويات، متخصصا في علم الدلالة من جامعة كانزاس، أمريكا عام 2007م. وتتركز اهتماماته البحثية في توثيق التراث والأمثال بشكل خاص، والبحث في علل استدامته وبقائه، ومساهمة التركيب اللغوي في خلق هذه الاستدامة. وتعد مشاركته هذه هي الثانية في مشروع "كلمة" للترجمة، فقد ترجم كتاباً سابقاً بعنوان: "الدخول في اللعبة: قصة النساء الغربيات في الجزيرة العربية"، وقد تم نشره.